في الأدب الافريقي المعاصر

١- القصة والمقالة

جمال أحمد

تعيش افريقيا اليوم نهضة شاملة ، ولكن معارك الاستقلال السياسي من ناحية ومعارك الاستقلال الاقتصادي من ناحية تستأثر باهتمامنا اكثره، وهي حرية بذلك لا شك ،فالقارة قارة الغد في اكثر من معنى واحد . لكننا لن ندرك الحقيقة كلها عن افريقيا ان حسبنا ان هذه المعارك الاقتصادية والسياسية تدور في فراغ فكري لا مكان للذكاء فيه او الخلق ، ولا يلعب الرأي دوراً فيه ، ولا تحدد الحساسية والوجدان معالمه : فليست القصة كلها قصة طعام وغذاء وكساء . انت هذه المعارك في اعقاب نهضة فكرية معاصرة ، تمتد جذورها الى ايام الاستعمار الاولى في العشر او العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر . كانت حينذاك يقظة فكرية ترود الطريق بالطبع ، تستكشف معارجه ، تعنى بالمقالة المثيرة والخطبة العاطفية والمحاضرة التحليلية ، وتنظر تارة الى الزنوج في الولايات المتحدة تستلهم جهاد رجالهم الاولين في سبيل الكرامة الانسانية ، وتارة الى الكنيسة تستلهم تعاليمها البشرية في وحدة الانسان واخوته . ثم تغيرت الحال على ايامنا هذه تغيراً جوهرياً اقتضته الحياة خارج القارة ، واقتضاه التقدم الذي امتد اليها من اوربا والولايات المتحدة ، والدور الذي شرعت تلعبه بلاد لم يكن لها في مصائر هذه القارة شأن كبير قبل الحرب الكونية الاخيرة ، اي جمهوريات السوفيات واقطار آسيا .

تبدأ النهضة الحديثة في الاداب والفنون مع خمسينات هذا القرن . لم يعد المفكر الافريقي في ايامنا هذه ينظر خارج قارته الا بقدر ، فقد اتى مرحلة من النضج يستطيع معها النظر الى تراثه ، وقد ازيح الستار عن كثير منه ذي خطر ، وان لم يكن ذلك الخطر

الذي تراه في بعض ما يكتب الكاتبون منهم الان . وينظر الى نفسه ، وقد تعقدت مع اقتحام الاوربي عليه داره ودارته ، وتعقدت نظرته للحياة تبعا لذلك ومضيا مع حاجياته المعنوية والمادية . نطق اليوم جيل من الشباب والكهول ترحل في اوربا وامريكا وداخل قارته ، وثقف ثقافة مست حياته الآلية والعاطفية والفكرية اعمق المس وهزتها من القواعد . لم يعد هذا الانسان واحداً في قبيلة الان ، تأتمر بامر زعمائها وكهانها ، لا يتاح له الا ما يتاح لكل فرد في القبيلة . المثقفون الان مواطنون اكثرهم في بلد متكامل ، يشركون الدولة اراءها واعمالها ، وبعضهم يصنع هذه الاراء ، ويقوم على تنفيذها احياناً اخر ، ويدرس معقبات هذا كله من بعد ، ليصلح الخطو ويأمن العثار . واهل الرؤى سادة المستقبل من هؤلاء المثقفين لا يحسون بالوطن الواحد الذي نماهم على انعزال ما عرفوا الا ترابه والا سعده ونحسه ، يرونه الان وطنا في مجموعة متشابهة الاوطان . ولاؤهم الاول حقا له ، فهو الذي عرفوا منذ الصبا ، ويزاحمه ولاؤهم للقارة الافريقية ، اكتشفوها اليوم وحدة متساندة لا يحول دون تحقيقها في السياسة والاقتصاد الا « الهة الصفيح » ذوو الاثرة والانانية كما يرى الثائرون العاضبون ، والا اختلاف المناهج والسبل كما يرى المؤمنون بها من المحافظين . ما اكثر ما تسمع هذه الايام « انا افريقي » ، عبارة ما الفها الناس من قبل . كانوا حين يقظ التاريخ يفتح عينيه يروبا ، كيكيو ، بانتو ، ومشوا خطوة مع الزمان الاوربي فاصبحوا نيجيريين ، كينيين ، وكمرونيين ، ومشوا اخرى مع الفجر الجديد فاضحوا افريقيين تجمعهم العاطفة النبيلة والمصلحة المستنيرة ، الا الذين يرهبون ما تجيء به الايام ، وقد اوشكت ايامهم على النهاية ؛ يمسكهم الخوف والتردد ، من قابل لا يعرفونه ، والحرص على حاضر صلد الفوه .

كان الانتاج الادبي في القارة مستحيلا بادىء الامر ، لان المواهب كانت تنفي نفسها طوعا اكثر الاحيان وقسرا بعض الاحايين . احتوت باريس مثلا منذ الثلاثينات شبابا من الزنج راح بعضه يطلب العلم وبعضه يطلب العمل وبعضه الثالث لا يطلب الا الذي يلقاه . انشأت الطلائع من هذا الشباب مجلات عديدة ، يبقى منها على الايام « برزانس افريكان » ، صحيفة لن ينصف باحث اجتماعي او فكري بحثه ان لم يضع لها مكاناً مميزا في الذي يرصد من مظاهر التقدم الفكري والسياسي في القارة الافريقية والمارتنيك وجزر الهند وهايتي وملاقازي . صدرت عنها ، وقد رسخت اقدامها كصحيفة ادبية سياسية ، مجموعات من الشعر والقصص والبحوث ، وهي اليوم نافذة مضيئة على

العقل الزنجي ، فانا لا اعرف كاتبا يستحق اسمه او سياسيا مهما كان لونه لم يكتب لهـذه المجلة وقتا ما في حياته .

ثم جاء العضد لهذه الصحيفة الرائد في باريس من الجامعات في العواصم الافريقية ، داكار و اكرا و عبادان وكسبالا . اتجهت جامعات هذه العواصم نحو شؤون الفكر العامة وكانت يتيمة من قبل ، واولتها العناية التي تجدها شؤون العلم الخالص والبحوث المتصلة بها في كل لون من الوان المعرفة ، واعانت بذلك على الميلاد الفكري في القارة ، واطلقت المواهب الحبيسة من عقالها ، ووقفت بحوثها جنباً لجنب مع البحوث التي تصدر عن لندن وباريس وموسكو ووشنطن . اتت هذه الجامعـات بذلك القدر من الأدارة والمال اللذين لا سبيل الى حياة الفكر الا بهما ، ولن يتم حديث عن صحوة افريقيا الشاملة الا بوقفة لدى بعض هذه الصحف .

نشأت في عبادان (نيجيريا) مثلا دائرة للدراسات التي لا تتصل بعلم بعينه او فن بذاته ، ولا تتصل بدائرة او اخرى من دوائر الجامعة ، ولا تخـاطب مستوى من التعليم المدرسي ، انما تخاطب العقل الذكي انى وجد ، في الحقل او في المعمل او في المصنع . وقد رصد مجلس الجامعة اموالا طيبة لهذه الدراسات ، فاستقدم القائمون على امرها شباباً من اوربا ، شباباً عاش خير سنيه خـلال الحرب وتشرب لذلك مبادىء الحرية للناس كل الناس ، والعدالة الاجتماعية للطبقات ، ونذر حياته لها يشيع دروسهما اينما كان ، لا يحقر ثقافة وان سذجت ، ويمتع بالافريقي لا لانه عادية من العاديات بـل لانه يعرف حياة تستأهل الدرس والتعمق ففيها حكمة واصول وفيها فلسفة ترفد الموكب البشري الذي غفل عنه القرون وتخصبه وتثريه . على يد حفنة صغيرة من هؤلاء ولدت مجلة « بـلاك اورفيوس » في عبادان : وعملت في حياتها القصيرة التي لم تعد الثمان سنين الان ، عملا جديرا بالاكبار والاجلال ، لا للمواهب النيجيرية وحدها بل لكل المواهب الافريقيـة الاخرى . واكبر يقيننا الآن ان « بلاك اورفيوس » لن تظل وحدها في الميدان . فقـد رأيت منذ شهور حفنة مماثلة من هذا الشباب الافريقي والاوربي تعد العدة لاخراج صحيفة في كمبالا لتخدم قضايا الادب والفن في شرق القارة ووسطها ، كما تفعل « اورفيوس » في غرب القارة . واتتني من بعد « ترانزشن » ، فاذا هي ـــ وقد صدرت ثلاثة اعداد منها حتى اليوم ـــ تولد مكتملة النضج ، فيها شعر وقصة وبحث وانباء ادب ، كلها حقيقـة

بعناية الذي يريد ان يعرف ماذا يدور بخلد القارة ويعتمل في وجدانها الجديد .

يجد قارىء هذه الصحف الادبية اسماء غير تلك التي سمع عنها من قبل . لن يجد سنغور فقد انصرف للبناء السياسي الا قليلا الان ، ولن يجد ازكوي فقد خلق مدرسة في الفكر وشرع الان في الحقل السياسي الذي هيأ له من قبل ، ولن يجد كنياتا فالعمل الحزبي يستغرق كل الذي بقي في الرجل الكبير من جهد . وليست السياسة العملية وحدها هي التي اخرجت هؤلاء القادةمن سبيل العمل الفكري : حقيقة الامر هو ان هؤلاء وكثيرين غيرهم ممن دخلوا مسرح الحياة العامة قبل اليقظة الشاملة ينتمون لجو فكري انقضى عهده . كانوا يعيشون ثقافة اوربية واخرى افريقية في آن ، ولكن الشباب المعاصر في القارة لا يعيش ذلك التمزيق المؤلم ، ولم يعد يعتذر عن افريقيته كما كان يفعل بعض الاولين . ملئت نفسه ثقة الان وعزة ؛ يأخذ العلوم والاداب والفنون والحرف من اوربا ، ويعني اكثر العناية بادوات هذه النظم ، ليعمل بها في بلاده الصغيرة من ناحية وفي قارته من ناحية . اقول ادوات هذه النظم ، لا النظم نفسها ، فهذه بعيدة عن مناخه اكثر الاحيان ، لا تتفق والتراث الذي تيقظ له الافريقي الحديث .

ترى في الادب الافريقي المعاصر اسماء تصعد كالشهب هذه الايام ، ويخيل الينا مما نراه ان الحقلين السياسي والفكري بسبيل ان يتخذ كل منهما سمته ورجاله ، اذ لم تعد حاجة لكل واحد ان يجمع العالم في شخصه فيكون الصحفي والاديب والسياسي والثائر في وقت واحد . سينصرف للادب رجال وللسياسة رجال ، فما عادت هذه النظم يسيرة كما كانت ؛ تعقدت وسائل السياسة واهدافها وتعقدت وسائل الفكر واهدافه الآن ؛ والقصة ، في نهاية التحليل ، قصة تعمق للنظام الذي يختاره المفكر ، وقصة وقت يتاح للواحد ايامنا هذه .

القصة

كتب سنغور مرة عن فن الحكاية في افريقيا فقال : « الحكاية التقليدية عند الافريقي نسيج موشى من حوادث كل يوم ؛ وليست المسألة هنا مسألة نوادر تحكى او قصص من صميم الحياة : تستحيل الحوادث هنا صورا يتخيلها القصاص ويسعى لنقلها للسامع ، وتتخذ هذه الصور من اجل هذا قيمة النموذج او المثال ، وتشير اشارة ابعد من تلكم

اللحظة التي حكيت فيها الحكاية . لن تجد واحدا من شخوص الحكاية فردا لقاء مجموعة بالمعنى الذي تعرفه اوربا. يمثل كل واحد من هذه الشخوص نموذجاً ندركه او مثالا نتصوره، مثله في هذا مثل النقاب الافريقي ». ان الحكاية التي يكتب عنها الشاعر الرئيس لاتختلف عن الذي الفناه في حكايات الاقدمين عندنا والاساطير . الحكاية هنا كما هي هناك صور داخلية ، ليست من « صميم الحياة » في كل حالة . الشخوص نماذج للعفة والخسة ، والاقدام والجزع ، وما اتصل بهذه الاخلاقيات بسبب ؛ لكن القارىء العربي لا يعرف كثيرين في ايامنا هذه يكتبون الحكاية على هذا النحو : فلم يعد احد يكتب على نمط عيسى بن هشام وعلم الدين ، فقد انتهت مقتضيات ذلك الاسلوب عندنا لحد بعيد وقضت القصة بمفهومها الاوربي بعد دانته وتشوسر وغيرهما على هذا النموذج . ولكن افريقيا تلجأ من حين لاخر لهذا النمط، توضح به فكرة لاسبيل الى توضيحها للعامة، كما فعل جومو كنياتا اول عهده بالجماهير ، وكما يفعل الان ايموس تتولا ، لا ليوضح فكرة بل ليلقي اضواء كاشفة على الخيال الافريقي وارتباطه بالحياة السياسية والاقتصادية ، ويسلي القارىء ويمتعه متعة لا تقتضيه اعمال فكر .

لن اقف اطول من هذا عند فن الحكاية عند الافريقيين ، فهو لا يختلف في جذور ودوافعه وروحه عن هذا الفن عند غير الافريقيين الا بالقدر الذي تفرضه البيئة على الانسان في مختلف اقطاره . ان القصة الافريقية بمفهومها المعاصر اتخذت في عشر سنوات او اقل مكانة في الادب العالمي ، لا من اجل هذا الحرص الذي تراه كل مكان اليوم للتعرف على القارة ، وان كان في الامر قليل من هذا ، بل لانه فن حقيق بانتباه العالم في بنائه وفحواه ، ولانه استطاع في هذه الفترة القصيرة ان يشرح افريقيا للذين يبحثون ويعيشون للبحث كما لم تستطع اداة اخرى من ادوات التعبير عن الذات . قال ناقد بريطاني يصف قصة من هذه القصص التي وجدت طريقها لعديد من لغات العالم : « تعطينا صورة عن افريقيا الزنجية ما استطاع رسمها كل المامبو جامبو الذي يسود به السادة البيض صفحات الورق كلما عادوا من رحلة للصيد وجمع العاديات » .

ان الذيوع الذي تلقاه هذه القصص لا يتصل من قريب او بعيد بالمصانعة التي يلقاها الصغار من الكبار ليشبوا عن الطرق ؛ من شواهد هذا ان « الافريقي » ، اول قصة طويلة كتبها وليم كتن ، لقيت طريقها الى دار سغنت في الولايات المتحدة ، واحدة من هذه الدور التي تنشر الكتب ذات المكان الاسمى باغلفة من الورق تعين الناس — كل الناس —

على شرائها . وتقييمي لهذه الرواية هو انها من اضعف ما كتبه القصاصون الذين اعرف، لكن قارىء تلك الدار رأى فيها غير الذي رأيت وقيمها بمقياس غير الذي استعمل ، ويقيني انه اخذ بالصور السياسية التي اتقن رسمها كتن وبالصراع الذي اتقن تصويره المؤلف بين القوى المحافظة في سيراليون والقوى الناظرة للامام . حقاً انها صورة طريفة، ولكنني حسبتها ساذجة ، لا تصل الى اعماق المصاعب التي لقيها محررو افريقيا حين شرعوا في اعقاب الحرب في تأليف الاحزاب السياسية والنقابات وما الى هذين من تجمعات قامت وسط علائق بشرية معقدة مؤلمة ، وما اتى حتى على بعضها المؤلف ؛ ولعله كان يكتب عن سماع لا خبرة : اقول هذا لان الشطر الذي يتحدث فيه عن حياته العملية في الخارج وعلائقه البشرية هناك شطر عميق حساس ، وان لم يكن القسم الاوفر في القصة ، شطر يبدو لنا انه خبره واختزن صوره في وجدانه الى اليوم الذي كتب .

وللرواية الحديثة في افريقيا (قصة وليم كتن نشرت عام ١٩٦٠ فقط) جذور واصول تعود لعهد كان قد عفى عليه الزمان ، الى ان اتت هذه الفئة القليلة من الروائيين ودعت النقاد الى التساؤل عن سر هذه العبقرية في القصة . اتى هؤلاء الشباب فذكر النقاد اول افريقي ، فيما نعرف الان ، عالج القصة في اساوبها وبنائها الحديثين ؛ والطريف في هذا الرائد توماس موفولو ان بينه وبين رفاعة الطهطاوي مشابه : اقرأ « رحلة الشرق » التي كتبها موفولو عام ١٩٠٦ في اعقاب رحلة طويلة خارج جنوب افريقيا وقارن بينها وبين « تلخيص الابريز » الذي كتبه الطهطاوي وقد اثارت الشجون في نفسه « باريز » ، تجد هذه المشابه واضحة . وفي سنة ١٩٤٩ كتب موفولو قصة شهرت الان حتى لدخلت الفصول المدرسية ؛ هي قصة تصور حياة المحارب الزولوي شاكا ، وقد لقيت الصور التي رسمها موفولو صدى في نفوس المبشرين . كان شاكا وثنيا من عبدة الاصنام والاشجار ومظاهر الطبيعة ، وقام في وهم موفولو الذي ثقف على يد المبشرين منذ كان صبيا وعمل معهم في مطابعهم شبابه كله الاول ، ان شاكا قتل وسبي واستحل الحريم ، ما وزعه وازع من دين ، ولو انه تعمد في الكنائس وتنصر لما فعل. لم ير في هذا المحارب فضيلة، فطرب المبشرون كمن يقول « شهد شاهد من اهله » ،واذاعوا الرواية ؛ لكن هذا لا ينقص من قدرها الفني ، فهي تحتل في القصة الافريقية مكانة « جوزف اندروز » التي يعدها الكثيرون بدء القصة الانكليزية . على ان شاكا سيد الزولو ما عدم من يرى فيه غير هذا الذبح والقتل الذي ركز عليه موفولو : فقد اضحى اليوم اسطورة تختلط الحقيقة فيها

بالخيال ، لان افريقيا الناهضة ارادت له ذلك ، وهي تبحث كالمحموم عن اصول لها وارحام في الماضي الذي انكره الناس عليها ؛ ولك ان اردت الشاهد ان تقرأ رائعة سنغور الشعرية عن شاكا ، نابليون افريقيا الذي ابى الغزاة من البوير ووقع صريعا وهو ينافح عن ترابه . حقائق غابت عن موفولو ، وهو في قبضة المثل المسيحية التي تأثر بها في صباه وما رأى ماذا فعل بها الناس وهم يصطرعون للحياة .

تلك كانت اللبنة الاولى في بناء صرح اتخذ سمته حين نزح الشباب الافريقي لاوربا وبريطانيا ، ولم يكن معدى عن ان يتخذوا وسائل التعبير من العواصم التي خفوا اليها للعلم حينا كما قلنا وللعمل حيناً اخرى وفراراً احياناً ثالثة . كان بيتر ابراهامز ، شيخ الروائيين الافريقيين ، واحدا من هؤلاء : دخل بريطانيا على سفينة يعمل فحاما عليها ، وعمل بادىء الامر مع صديقيه كنياتا ونكروما يجمع الشباب ضد النفوذ الاجنبي ، واتجه من بعد للكتابة ، وقد عرف في نفسه العجز عن مصارعة المتاعب السياسية .واكتشف موهبة قصصية نادرة بعد ان كتب «ولد في المنجم» يصف فيها حال النازحين من كيب تاون في مناجم جوهانسبرغ ؛ وتوالت بعدها الروايات : « الاحتلال الوحش » قصة اللقاء الدموي بين الماتابيل والبوير ، و « طريق الرعد » القصة التي اوثرها على كل ما كتب لليوم ، قصة الفتاة الاوربية التي دفعت حياتها ثمناً لحبها الفتى الزنجي،وقد قال ناقد يصف اسلوبها الكتابي انها كتبت « باسلوب الملائكة » : وما اسرف فيا نقد ، وان كنا لم نقرأ للملائكة شيئاً بعد! ابراهامز روائي حقيق برائده موفولو : ولكن افريقيا لم تكن لتقف عند حد .وقد راد الطريق بعض ابنائها اول الامر، وكان لباريس ــ مرة اخرى ــ يد لا تنكر على النازحين اليها والثاقفين ثقافتها الملهمة : احتوت هذا الشباب واعطته الكثير من مواهبها في التعبير عن ادق خلجات بني الانسان ؛ ما بخلت عليهم بشيء من فتونها الكثيرة ، ولا اوصدت في وجوههم نافذة من نوافذها العدة ؛ ولكن هذا الشباب لم ينصرف اليها كما حسبت هي وارادت : رأى افريقيا خلال باريس المعلمة السخية ، وكانت عينا جديدة تلك التي رأت القارة في ضوء الذي حذقته من علوم فرنسا ومهارتها الذكية .

كثيرون هم الذين رأوا القارة بعين جديدة ، كصاحب قصة « طفولة زنجي » التي تثير الرضى الذي اثارته « الايام » على بعد ما بين القصتين والكاتبين ، تجمعهما روعة العمل الفني المخلص . كتب جيمز كيركب الشاعر الانكليزي يقدم « طفولة زنجي » فقال

انها قصة «واضحة دافئة، تأخذ بيدك وعقلك وقلبك تواً لجوهر الامر ، وتجمع بين الوضوح البهي الذي تتميز به الفرنسية فكرا ولغة ، والحرارة التي لا يستطيعها الا القلب الافريقي . » وقد دفعت هذه الرواية بصاحبها الى المكانة الاولى بين روائيي افريقيا الذين يكتبون بالفرنسية، وهي مكانة لا تنافسها الا مكانة شنوا اشنب الذي يكتب الان بالانكليزية في نيجيريا . نفذت طباعة قصتيه الان ولم تنشر اولاهما الا عام ١٩٥٨ ، واعيد طبعها عام ١٩٦٢ ؛ شخوصه يحيون الحياة الاوربية التي قاومها الآباء والاخوان ، حين اتت كالمحراث تقلب الارض وجها لقفا وتحيل الحياة الوادعة العاجزة الى اخرى ذات اقتدار وقلق ورفاه وضيق .

وليست هذه هي الميزة التي تميز القصة الافريقية، فكل قصة تستحق اسمها تعنى بشيء او اخر يشغل على الكاتب ذهنه وقلبه ، ولكن القصة الافريقية المعاصرة تأسرك على صعيد آخر ، صعيد جرس الكلمة . ما ادري سر هذا ، ولكني ما قرأت لليوم قصة اسلوبها الكتابي لا يسوقك من فقرة لاخرى وصفحة لاختها سوقا تلذه وتمتع له ؛ يخيل لك بعض الاحايين ان الكلمة في يد هذا الشباب اطوع منها في يد اهلها ، ومن يدري لعل مرد هذا الى اللذة التي يجدها الداخل على مهل منطقة ما عرفها من قبل ، فالفرنسية او الانكليزية لدى الافريقي دنيا جديدة يدخلها على استحياء وجزع ، ويكتشف مع الوقت قدراتها على التعبير عن كل الذي يثور في نفسه . ويكاد ان يكون القصاص شاعراً حين يصف مناظر القرى ، وصراع الصبيان في ضوء القمر ، وحفلات الختان ، وحرص المبشرين ، وهدوء الشيوخ ، وعفرتة الشباب ؛ وكل الذي يعين القصة لنسير امام، تؤكد نقطتها دون ان تمل القارىء او تضنيه .

المقالة

لم يكن الادب الافريقي ليختلف عن غيره من الاداب في استعانته بالمقال القصير او البحث الموجز للتعبير عن فحواه ، فعند منتصف القرن الماضي اتخذ هذا الاسلوب فئة من الساسة والمصلحين ورجال الدين ليبشروا بأرائهم الجديدة في السياسة والاصلاح وليذيعوا

تعاليم المسيحية بين الناس . على رأس هذه الفئة المناضلة ادوار بلايدن ، اقدم السياسيين في غرب افريقيا التي كان يعدها كلها موطنه، وان كان مواطنا ليبيريا في الاصل .طوف بلايدن غرب القارة ، ورأى من مصاعب قومه ما دعاه الى الترحل في اوربا والولايات المتحدة ، يدعو الى اشراك الاهلين في القارة في نظم الحكم اعدادا لهـــم للاستقلال في النهاية . كتب مقالات في صحف تلك البلاد والقى محاضرات ، جمعت من بعد في كتاب يعد اليوم مرجعا في دراسات القومية الافريقية ، والامر الذي لا يشك فيه باحث هو ان بلايدن والقس كراوشر ، كلاهما كان يستلهم زنوج الولايات المتحدة على ذلك العهد ، وكانوا يعيشون حركة فكرية صاخبة تقتتل فيها الاراء السياسيةوالدينية بين المغالين انصار العودة للقارة الام والمعتدلين انصار الكفاح فيالولايات من اجل المساواة والعدالة . خير ما يمثل الجدال آنذاك آثار الدكتور ده بوا الذي كتب«روح الزنوج» مقالات نجوما بادىء الامر وجمعها في كتاب لا زال يحتفظبرونقه اليوم ، ويقيني انه سيبقى واحداً من روائع ما كتب الزنوج ، ويجدر بي وانا اتحدث عن الملهم الاول هذا ان اقول انه ، وقد اربى على التسعين، سافر منـــذ اسابيع الى اكرا ليشرف على « السيكلوبيديا افريكانا » التي حلم بها منذ ربع قرن ، ويسر له المال والجاه نكروما منذ سنة مضت ليحقق ذلك الحلم لصديقه واستاذه .

اما خصمه ماركس جارفس الذي دعا للعودة للقارة الام فلم يجد من التقدير والاكبار ما لقيه ده بوا ، وان كان قد اثر ابلغ الاثر على القارة الافريقية ايام كفاحه : يرويمؤرخو القومية الافريقية مثلا ان ملك سوازيلاند في العشرينات لم يكن يعرف اسم زنجي خارج اقليمه الا اسم هذا الرجل ، الذي اسمى نفسه في وقت من الاوقات « رئيس جمهورية افريقيا » . لو عاش على ايامنا هذه لعدّ مهرجاً اكثر منه مصلحا ، ومـــا كان في الحق كذلك : كان كثير الاحلام ، قضى اخريات عمره يخطب في هـــايد بارك ، وكانت رحلة ذهنية طويلة بدأت في جمايكا حيث ولد ، وانتهت على مقاعد تلك الحديقة الرطبة التي لا يلوذ بها الا من عدم الملاذ ، سمت او سفلت مراغبه .

ثم انتشرت معاهد العلم ، وعادت حفنة من الشباب من مـــدارس الولايات المتحدة واوربا ، فصدرت في اكثر من ركن في افريقيا صحف تـــدعو الى الاصلاح الاجتماعي ، وتطلب الى فرنسا وانكلترا قليلا من التطور السياسي ، في روح كسيرة تتهيب الوضوح في

الطلب ، ولا تعرف يقينا كنه هذا الاصلاح السياسي الذي ترجوه واحيانا تشحذه . كانت يد الاجنبي قوية ضاربة ، ويد الافريقي رخوة لا تقوى على كثير . ثم هب على القارة اعصار : رجع الدكتور ازكوي وكان شاباً في زهرة العمر من جامعة لنكلن في طلعة الثلاثينات ، وحملت صحيفته « رائد غرب افريقيا » العبء الذي حملته « اللواء » في مصر في العقد الاول من هذا القرن ، وكانت صحيفة مقالة كما كانت اختها تلك . لم يرق ازكوي مراقي مصطفى كامل لاسباب لا تشينه ، ولكنه كان سوط عذاب على الاحتلال في اقليمه ، وان تركها اليوم لتلاميذه ولم تعد « رائد غرب افريقيا » تلك الصحيفة التي كان يتطلع اليها المتعلمون في الاقليم . فقد اضحت صحيفة عصرية يعنيها الخبر الزاهي والمقال الهائج ، وتعنيها المقالة القصيرة تهدف لفكرة واضحة يقولها الكاتب في كلمات معدودة تثير التفكير والتأمل .

وكثرت الصحف بعدها ، وكان من نتائج هذا ان تيسرت اللغة : فالكاتب لم يعد يكتب لصفوة من الناس مختارة ، واتسعت افاق المواضيع التي يعالجها الكاتبون . وكان طبيعيا لهذا ان يتجه الشباب المعاصر الى المقالة الادبية الانيقة يعبر بها عن عاطفة بذاتها يحلل بها احساسا بعينه او يصف بها شيئاً وقع . وعلى الذين يريدون مدخلا للعقل الافريقي اليوم والعاطفة الافريقية المعاصرة ، ان يقضوا بعض وقت مع هذه المختارات التي تملأ مكتبات الغرب اليوم . شرعت بهذه المختارات صحيفة «ضرم» التي تصدر في جوها نسبرغ قذى في عين فيرفود ومدرسته . وقد توالت في الاونة الاخيرة كتب المختارات التي تضم طائفة صالحة مما يكتب الناس في الاقاليم الافريقية ، فظهرت مجموعات « الضياء والظلام » وعدد خاص من «القرن العشرين» و«الخزانة الافريقية » . كتب لهذه «الخزانة الافريقية» ، ايموس تتولا الذي لم يتلق تعليما يذكر فقد ولد في غابة من غابات نيجيريا وجاء المدينة ليعمل صبيا لصائغ ، وكتب لها ابيوس بيكول ، الطبيب الذي اهل نفسه في كيمبردج ويعمل في بلاده سيراليون الان ، اما ماتي ماركوي فما زال طالبا اليوم يعمل لشهادته في المملكة المتحدة ، وقد عدا الثلاثين الان ، لان غانا لم تيسر له اماله في التعليم الا منذ قريب حين استقلت وتلفتت تبحث عن المواهب . ومن جنوب افريقيا كتب لهذه الخزانة حمال يعمل في ميناء اقليم الكاب ، وليس هذا بالطبع مقاله الاول ، وكتب لها السيد بنبنقر بلاي الذي كان حين ارسل مقاله للخزانة عضو في برلمان غانا ، كما كان سنغور في فرنسا يمثل السنغال

في الجمعية الوطنية هناك : مجموعة من الحرف والاعمار والبلاد والخبرات يجمع بينهامواهب حقيقة، عرفت سر الحرف واتجهت اليه واستعانت به لتعبر عن هذه الصدمات الضخمة التي تعيشها النفوس الحساسة في القارة، التي صعب معها هذه الايام ان تتابع انباءهـــا، والتغييرات التي تطرأ على كل شيء، حتى على اسماء اقطارها، على نحو ينبغي عليك ان تغير خارطة القارة على مكتبك في اوقات غير متباعدة.

وتتناول المقالات فيها مواضيع متفرقة تتصل بالحياة في جوانبها العدة ، فحزقيل مغايل ــ وهو في تقديرنا سيد المقالة الافريقية ــ يكتب عن «المثقف الافريقي » ، وابراهامز يكتب عن «السود» وهي من امتع ما كتب في ادب الرحلات على ايامنا الحاضرة: رجع للقارة وقد اوفدته واحدة من كبريات الصحف فلقي رفاق الصبا والكفاح الاول وقد تقدم بهم كلهم العمر ، لقيهم يكافحون على نحو جديد : نكروما يعمل للبناء وقد انتهى من التقويض، تقويض الاستعمار، وكنياتا يكافح على صعد عدة اشقها الصعيد الذاتي. لقيه ابراهامز مشتتا بين بعض نفسه التي تجنح لاوربا ، لكتبها ومسارحها وفتياتها ووجدانياتها وكل الذي الف هناك واحب سبعة عشر عاما من حياته الفتية ، وبين قيادة هذا الشتيت الذي لا يفهم عنه الا قليلا ويحتاج لكثير . وشبيه بهذه الصورة الحزينة صورة رسمها لنفسه ابيوس بيكول في مقاله « العودة لغرب افريقيا » : عاد من كيمبردج بعد ان قضي بها سنوات سعيدة ليقيم في سيراليون ويحيا « موزع الوجود بين غرب اوربا وافريقيا » ، الوجود الروحي والوجود الجسدي ، شأنه شأن غيره من شباب قبيل الحرب . ولم يكن ممكناً ان تخلو هذه المختارات من مقال سياسي . كتبه توم مبويا عن « الحرية الافريقية »، وهو واحد من هذه الارواح النادرة التي تستطيع العيش على كل صعيد. فكتب هذه المقالة التي تحلل نزوع افريقيا الحديثة للاستقلال، تحليلا ذكيـــا عارفـــا يستحق مكانه في هذه المختارات، وتستطيع التحدث للجماهير العمالية في مساكنها التعسة حول نيروبي وسباسا، يثيرها ان اراد ويسوقها سوقا الى الهدوء ان رغب، يعينه على هذه الاخيرة وجهه الوسيم الضاحي، وصوته الودود الماكر، وسواحيليته التي يتقنها ــ فيما فهمت ــ ادق الاتقان .وفي واحدة من هذه المختارات مقال يصف فيه كاتبه اللقاء بين قادة القارة السوداء في المؤتمر الاول للشعوب الافريقية عام ١٩٥٨ في اكرا، وصفا لايتصل بالسياسة اتصاله بهذا الحس المرهف الرنان الذي يربط بين المكافحين في كل بقعة من القارة. يقول الكـــاتب الحساس يصف الاصرة بين المنافحين عن اوطانهم وعن القارة فيقول: « الساعة العاشرة .

يصل رئيس الوزراء الدكتور نكروما برفقة وزرائه . يقف توم مبويا الشاب دافق الدم حاره، افعل الرجال في كينيا واقدرهم الان . رئيس المؤتمر يقدم رئيس الوزراء، ويقول شيئا عن مكان المؤتمر في يقظة القارة. يلمح الدكتور نكروما سفير تونس في لندن جالسا بجانبي. ما اعجب هذه الكهرباء تفتر عنها شفتاه وهو يلوح بيده . اهلا ، يرحب بالسفير التونسي. ويقوده توم نحو المنصة، ذراعه حوله يلفه بها، يهمس شيئا في اذنه . لا يسعني وانا ارى هذا الذي اراه الا ان اقول لنفسي: هذه افريقيا التي تفهم التقاليد فهما يختلف عن فهم الاوربي لها...» وهكذا، ان لم تكن هذه كلمات رابطة بين النفوس، واثقة ما بينها، فاين ؟

في العدد القادم

يتابع جمال احمد دراسته هذه في الادب الافريقي المعاصر ، فيكتب عن الحركة الجديدة في الشعر ، ويختار نماذج منه ، فيترجم قصائد لكل من غبرييـــل اوكارا (نيجيريا) وليوبولد سيدار سنغور (السنغال) وجان جوزيف رابرفلر (الملاقازي) .